

الإثنين 11-02-2008

164-...هل للذات حدود؟ متى وكيف نفقدوها؟

كلمة "ذات" كلمة رشيقة لها سمعة حسنة حتى عند فرويد العظيم، وأيضاً عند ماسلوا، وعند شكسبير، ونجيب محفوظ، وأدونيس، وعندى وعندك.

كل منا يريد أن يحقق ذاته، أن يكون ذاته، أن "يكون" أو لا يكون"!!!!

ما الحكاية بالضبط؟ أو حتى بالتقريب؟

وما الحكاية الآن؟ بعد أن عرفنا التعدد، والزمكان، والكموية، والنسبية، وعلوم التركيبية؟

حتى حين ظهرت فكرة (نظرية) **تعدد الذوات**، بل وثبتت صحتها أو كادت، لم تنتقص هذه النظرية من قيمة ووقع ورنين كلمة "ذات"، مع أن المفروض، أنه، والأمر كذلك، أن نسأل من يركز الآن على قضية تحقيق ذاته أن نسأله (بطيبة لو سمحت): **أى ذات (من بين كل ذواتك) تريد أن تحققها يا سيدي؟**

هذه المقدمة ضرورية لنواصل مناقشة ما بدأناه أمس حول ما يسمى فقد حدود الذات، وهو تعبير شائع وله علاقة خاصة بما يسمى أعراض شنايدر: أعراض المرتبة الأولى للفصام، Schneider's first rank symptoms

منذ واجهت هذه المسألة، وأنا أنتمى إلى الفكر البيولوجي بمعناه الأوسع، كنت أفهم هذه الحدود باعتبارها حاجزا متماسكا وآلية قادرة مجدداً الحد الفاصل بين ما هو "أنا" وما هو "لا-أنا" (الآخر-الواقع)، سواء من منظور مدرسة العلاقة بالموضوع Theory Object Relations أو من منظور طيف موضوعية الإدراك، (إدراك الموضوع الذاتي في مقابل إدراك الموضوع الحقيقي Self Object versus Real Object)، وكنت أحياناً أرسم رسماً بيانياً حوله دائرة مثقوبة هنا، أو مشروخة هناك لأشرح لطلبتى معنى كسر حدود الذات، كما أنى وصفت ظاهرة أخرى تفسر بعض أعراض الصف الأول وأسيتها "شفافية حدود الذات" وأبنتُ من خلالها كيف أن هذه الشفافية هي التي تجعل داخلنا في متناول الخارج حتى يصبح عرضة للقراءة من الآخرين، كما أضفت أن هذه الشفافية

(كعرض مرضي) هي التي يمكن أن تحمي حدود الذات من الكسر فالتناثر، ذلك لأنها تحقق للدخل حقه في الإعلان، حتى يقرأه الناس (هناك من يقرأ أفكارى) دون أن يضطر إلى أن يقتحم هذا الداخل بمحتواه المشحون والعشوائي، يقتحم الحدود حتى يعلن وجوده (أو يطالب بحقوقه).

هذا التصوير الرمزي التركيبي الدينامي معاً لم يحل لى إشكالية البحث عن معنى نيوروفى (عصبي) بيولوجى، وربما داخل خلوى، لفهوم حدود الذات وفقدانها.

مع تهادى ممارستى لحضور تعدد الذات رأى العين فى ألعاب العلاج النفسى الجمعى بما فى ذلك الميضى دراماً، ضمن العلاج التشكيلى الذى نمارسه بغية أن نحقق قيادة مستوى واحد للحن الوجود الدماغى المتسق فى لحظة بذاتها، أهتديت إلى فرض ليس رمزياً يقول:

• إننا نعى محدود الذات تلك القدرة لقطاع أو مستوى من المخ أن يتوجه إلى تحقيق غايته فى هذه اللحظة **جامعاً مانعاً، قائداً منسقاً،**

جامعاً: بمعنى أنه يمثل الفكرة الغائية الرئيسية المحورية (ليست بالضرورة شعورياً) ويجمع كل الطاقة الفاعلة (كل ما يحكم نوعية المستوى النيوروفى/الخلوى القائد من المبادأة والإرادة والتوجه والسلوك والوجدان ..إخ) لتحقيق هذا التوجه.

مانعاً: لكل مستوى غير ذلك (سواء كان مضاداً أو موازياً - لكنه غير ضام- أو طفيلياً، أو مماساً منحرفاً)، وأيضاً مانعاً لتدخلات الخارج (الواقع- الآخر) التى لا تتسق مع غائية لحظته.

هذه القدرة لا يختص بها مستوى بذاته طول الوقت - (سواء كان اسمه حالة ذات Ego state، أو حالة عقل Mental state، أو مستوى وعى Level of consciousness، أو منظومة دماغ Brain organization - أو "مس من الجان" كما يسميها العامة عندنا من الأسوياء والمرضى).

فى لحظة تالية، أو موقف آخر، أو طور إيقاعى منتظم، يتغير القائد (المايسترو) ويتوجه القائد الجديد لغرضه المناسب للموقف الجديد، ويصبح جامعاً (خدمة الفكرة المحورية الجديدة المتناسبة مع الموقف الجديد) مانعاً لكل ما هو غير ذلك .

من هذا المنطلق تصبح حدود الذات ليست جداراً متماسكاً أو منهاراً، وإنما هى قدرة الجمع المنع المناسب لأى مستوى قائد فى وقت لها بذاته

فقد حدود الذات

حين نتكلم عن فقد حدود الذات Loss of Ego Boundaries من هذا المنطلق التركيبى التشكيلى، فإننا نعى ضعف هذه القدرة "الجامعة المانعة، عن القيام بوظيفتها بكفاءة خدمة المايسترو (القائد) لتحقيق غائية لحظته،

وبالتالي يحدث تداخل وخلط وحوار وصراع وإسقاط واغتراب، وتظهر الأعراض حسب تفعيل أى من هذه الآليات لأى من هذه المستويات النشطة معا التي لم تتمكن القوة الجامعة المانعة من تنظيمها.

من هنا يمكن أن نقرأ فقد حدود الذات على مستويين:

• الأول: الحدود (القدرة المانعة الجامعة) بين ذوات (ومحتويات) الداخل وبعضها

• الثاني: الحدود بين الذات (أنا) وبين العالم الخارجى.

وأيضاً يمكن قراءة الظاهرة الجديدة التي وصفتها تفسيراً لبعض أعراض شنايدر وهى ظاهرة "شفافية حدود الذات، Transparency of Ego Boundaries ، وقد وصفتها بشكل خاص فى الاكتئاب باعتبار أنها آلية تمنع انهيار هذه الحدود، ومن ثم الفصام، وهذا من منطلق أن الاكتئاب، مثل سائر الأمراض الأقل خطراً من الفصام التفسخ إنما هو بمثابة "دفاع Defense ضد احتمال حدوث هذا الفصام/التفسخ.

أرى مناسباً أن أثبت معالم هذه ظاهرة شفافية حدود الذات لأنها غير موصوفة فى الفكر السيكيوباتولوجى التقليدي، وهم يعتبرونها مرادفة لفقد الحدود مع أن وظيفتها هى الخيلولة دون ذلك، ثم إن هذا الوصف لهذه الشفافية جاء فى فصل الاكتئاب دون الفصام وهو ما يبرر ما سوف نستشهد به فى القصيدة الأولى هنا المستلهمة من "حالة اكتئاب"

جاء فى كتاب دراسة فى علم السيكيوباتولوجى ص 171 ما يلى:

حدود الذات فى الاكتئاب:

من المعروف أن العرض المسمى فقد حدود الذات Loss of ego boundaries هو عرض خاص بالفصام فى أغلب الأحوال، إلا أنه فى بداية الاكتئاب (والأزمة المفترقية بصفة عامة) تحدث ظاهرة يمكن أن تسمى شفافية حدود الذات Transparency of ego boundaries ،

وتعبر وحدود الذات هو تعبير رمزى من ناحية ووظيفى من ناحية، إلا أننا لى ندرك طبيعته وحقيقته يستحسن أن نترجمه إلى لغة عصبية...

تكون الذات محدودة بمدى الفصل الواضح بين مجموعة من الترابطات Associations ومجموعة أخرى، وفى حالة الاكتئاب (والأزمة المفترقية بصفة عامة) يدب النشاط فى الجزء الأقدم من المخ ويضعف هذ الفصل بين مجموعات الترابط لأن النشاط الجديد يشارك فى الوظائف الشعورية، فإذا ترجمنا ذلك إلى لغة التحليل التفاعلاتى Transactional Analysis قلنا إن الطفل (الذات الطفلية) يقترب ويترجم الوالد والفتى، ولكنه - كما ذكرنا - لا يجل مغلها أو ينتصر عليهما، ومع

ضعف هذا الفصل بين النشاطين يشعر النشاط الذى كان سائدا بأنه غير قادر على التحكم فى الداخل بالفصل (عصيا) أى بالكبت (باللغة النفسية الدينامية) وكأن هذا الداخل مهدد دائما بالخروج بالرغم منه، أو بالإعلان، وهذا ما يعنيه المتن: (فتحت أبوابي- رقى غشائى)

نلاحظ هنا أن ثمة إرهاصات باكرة (1979) كانت تشير إلى تعريف الذات وحدودها من خلال حركية فاعلة (التحكم فى الداخل بالفصل.. إلخ) .

• من هذا المنطلق الحركى يمكن تعريف الذات ليست باعتبارها "أنا" وإنما باعتبارها "المشروع الذى أمارس تشكيله لأكونه"

• وهو ليس مشروعا غائما هلاميا، وإنما هو حاضر مائل فاعل فى أى لحظة بذاتها تحتاج أن تتحدد فيها ولها معالمه

• إلا أن تحديد المعالم لا يعنى الثبات، فهذه الذات الواحدة القائدة هى فى نفس الوقت جاهزة للتبادل والإيقاع والحوار والجدل، خاصة فى أطوار الحلم والإبداع (العادى)

• هى مشروع دائم ، وفى نفس الوقت كيان محدد المعالم والحدود بحسب كفاءة "الجمع المنع" فى لحظة بذاته .

من خلال تطور فكرى فى اتجاه مواكبة الحركة، أكثر منه تحديد مفاهيم، أصبحت كفاءة عملية الجمع المنع للمستوى القائد فى تركيب الدماغ هى حدود الذات تغير تعريف ومفهوم الذات الذى سبق أن طرحته سنة 1979 من منطلق بيولوجى نيوونى أيضا

كنت قد عرفت الذات تحديدا كالتالى (دراسة فى علم اليكوباثولوجى link ص 248):

....."الذات" من منطلق بيولوجى عصى إنما تعنى "قطاع النيورونات المترابطة المتحكم فى بقية النيورونات الكامنة، وهو القطاع الذى يحتل الوساد الشعورى السائد فى مرحلة ما من التطور والنمو، والذى يعمل فى مجموعة معا"

(ويقابل هذا التعريف -غالبا- ما يوازيه داخل الخلية بالنسبة لتنظيمات الجزيئات العظيمة)

وأبعاد الذات إذا من هذا المنطلق هى تحديد هذا القطاع فى علاقته ببقية التركيب، .."

لكننى لم تحضرنى تحديدا فكرة هذه العلاقة الجامعة المانعة فى لحظة بذاتها، وبإدخال البعد الحركى الذى حضرنا حالا يمكن تعريف الذات من منطلق حركى على الوجه التالى:

• الذات هى الحركة فى اتجاه لحن الذات المتخلقة لأكون

• كما أن الفطرة هى حركة هذه الذات فى اتجاه سيمفونية "الذات فى المطلق" الممتد إلى وجهه تعالى

هكذا يصبح تعبير تحقيق الذات تعبيراً استاتيكيًا لا يصف الذات بالمعنى الذى نطلقه عليها عادة، لأن المفروض - من هذا المنطلق - أن الذات لا تتحقق أبداً، وإنما هى دائمة التشكل والتشكيل always in the making،

هذه الحركية لا ندرکها بدهاءه بوعى ظاهر محدد، وإلا توقفت الحياة عند محاولات اختيار القائد القادر على الجمع المنع كل لحظة، ولكنها آلية سارية طول الوقت، وهى تسرى بإيقاع حيوى منتظم فى الأحلام، وهى أيضاً تسرى بإيقاع حيوى بيولوجى طبيعى طول الوقت، وبالتالى هى تكتسب تسميات فى السواء والمرض بحسب اللغة والهدف من التسمية.

لن أتطرق تفصيلاً فى هذه اليومية إلى مظاهر أخرى فى الصحة والمرض تعلن عن آليات ومظاهر عجز الذات القائدة (المايسترو) عن ممارسة آلية الجمع المنع (حدود الذات) حتى لا تختلط الأمور، وإن كان ذلك سوف يرد كثيراً، خصوصاً ونحن نعرض حالات حية.

عودة إلى يومية أمس

أشرنا أمس إلى أن الجثث داخل المريضة الفصامية التى حكمت عنها د. أميمة رفعت ليست بالضرورة جثثاً تشير إلى الموت بقدر ما هى محتويات الداخل بلغة عيانية أو رمزية خاصة، كذلك نهبنا فى الرد أن فقد أبعاد أو حدود الذات ليست ظاهرة خاصة بالفصام.

انتبهتُ إلى ذلك من خلال أدبيات الأبحاث المنشورة عن أعراض شبائير بالذات، وكيف أنها تصف الحالات الميكرة فى الفصام، وأيضاً كيف أنها ذات دلالات طيبة بالنسبة للتكهن Prognosis بسير المرض، ثم انتبهت كيف أن هذه الأعراض بوجه خاص (مقارنة بالضلالات الثابتة المستتية Fixed established delusions هى أقرب إلى التناول فى العلاج الجمعى، بل ولها مفعول السحر فى التقدم نحو ولاف علاجى تام

من وحي حالتين

الحالة الأولى: كانت حالة رجل فى أواخر منتصف العمر - العقد الخامس، فقد ذراعه منذ سنوات أثناء عمله فى مصنع ماء، كان صبوراً، طيباً، متألماً مسئولاً فى صحته ومرضه، أبلغتني الطبيبة المقيمة غرابة أعراضه من حيث أنه يحكى أن كل شيء حوله بلا استثناء، يدخل إلى داخله دون استئذان، وأن هذه حقيقة يعيشها بوعى كامل، وقد كان تشخيصه أبعد ما يكون عن الفصام، لرفته وتماسكه وألمه وأشياء أخرى، كان ما يسمى مؤخراً: الاضطراب الوجدانى الجسيم من النوع الاكتئابى، وهم ما أسميه أنا الاكتئاب البيولوجى النشط، أوحى إلى بهذه القصيدة

الحالة الثانية: هى بصراحة - هى جُماع من إجماع حالات فصام مختلفة، فى سن الفصام الأمثل (15-25) وهى تعرض أكثر من بعد من فقد أبعاد الذات التى لم تَج لها فرصة أن تتكون أبداً، يبدو أن مشروع تشكيل الذات لم يبدأ أصلاً، أو لعله أجهض مبكراً.

سوف أعرض القصيدتين دون شرح أو نقد أو تعليق كما أوصاني أغلب المعلقين بالنسبة لمحاولاتي السابقة، وإن كنت لا أعد بالالتزام بذلك فيما بعد، أتذكر أنني لو التزمت بهذا التنبيه الجيد ما ظهر كتابي الأم "دراسة في علم السيكوباتولوجي أصلاً".

- القصيدة الأولى الريح والأحزان

-1-

تمتدّ ذراعى خلف الآفاق المقدورة .
تطلق فؤمة النيران جفاقل نبض الأشياء .
تحرت أقدام الجيش الهارب أرضى المخروثة ،
وتدق حوافرهم أطراف الذكرى .
تقتحم الريح الأسوار .
تُننّتهك الأسرار .
ويطير الزنبورُ يطارد جَمْعاً من مَخْلَبِ شَعَاله .
والقبرةُ ، وأنثى الهدهد ، وفراشةُ .

-2-

يعلو الكومُ فيخترقُ السقفَ العارى ،
فيعيد وليد أحق رصّ اللينات
فوق رمالي زاحفةُ .
والخنفسُ يخفى رأسهُ ،
تحت الساق المسلوخةُ .
وعيونُ بؤابة .
سقط المزلاج .
والآذان نوافذها مفتوحةُ
دون استئذان .

-3-

تنبح أصواتٌ سبعةُ ،
ثامنهم ثعلبُ ،
يقضم قلب دجاجة .
تتوارى صيحة ديكٍ وشطّ دوى التفجير .

-4-

تتعالي أبقاقُ الإنقاذ المتكاثفة المرعبة الخائفة العجلى .
يتحفز حزنٌ أبلجُ ؛
حزنٌ أرحب من دائرة الأشياء المنثورة
الأشياء العاصية النافرة الهيجى ،
حزنٌ أقوى من تشكيل الكلمات ،
حزنٌ يصرخ بكما ،
يشرقُ ألما .
حزنٌ يستوعبُ أبناء الحيرة
يجمع أطياف الفكرة ،
يوقد نار الأحرف والكلمات .
حزنٌ أسلس من ماء الدمعة ،
أعتى من لفح الجمره .
حزنٌ يجنو ، يُدمى ، يلهم ، يصرخ ، يُحىي روحاً ميتةً ضجره .

-5-

تساقط حَبَات القِطْرِ النَّزْقَةِ،
تتجمَعُ بِرُكْ أَسْنَةِ رَجْرَاجَةٍ.
تتوالد أحياء العفن،
تتكاثر،
تأكلُ أصلَ الشجرة .
تجرى الأشياء وراء الأشلاء
تشتعل الدائرة المغلقة: جهنم :
"عجلتُ العربيات، وذرات الرمل، وكرسی المكتب. ودبيب
النملة، وفحيح المرأة، ونقيق الضفدع، وسباب الأطفال وراء
الكرة الجورب في حلق المرصى..،
واللولوة الثكلي"

-6-

تقتحم كيان ذرات الدنيا دون استئذان.
تتكلم مني أحشائي والأعضاء وأطياف الذات،
تتقاذفني الكلمات.

قصيدة لم تنشر: 1982/5/6

- القصيدة الثانية ملهى العرى

[حدود الذات وصكوك الملكية]

- 1 -

حين يشقُّ جدار النفس يكونُ النظرُ إلى المرأة جريمةً

فلماذا نظروا هم من ثقب الباب

- 2 -

كان الداخلُ ملكي رغما عني
لم أستلم السند من الوالد بعد
أوصى قبل وفاته
أن أبحث عنه في صندوق الجد
سلم مفتاح خزائنه لامرأته
ماتت.

وأشيع بوسط الجمع الخاشد
- القادم للمعزى والفرجة -
أن الداخل ملكي دون منازع
وبوضع اليد
يد من ؟؟؟!

-3-

أبنى حول الملك السائب
أسوار الستر
أضع بأعلى السور شظايا الصد

فلماذا رقت جدرانها؟
ولماذا تحلت شظائرها؟
من أكل البحر؟

- 4 -

يقفز مني،

يتحفظ،
يطلب حق النصف
غير النصف الموقوف على حفظ السر

الموروث يطالب بالإرث؟!
وأنا لم أملك سند الملكية قط

- 5 -

لم يَجُلْ أئُّ منهم من لُعبَةٍ خلج الفكرة تلو الفكرة
ملهى العزى المشبوهة

ماذا يبقى إن عرفوا مكنون السر
وتجاه السهم

وفراغ القفص من الطائر

رغم تناثر حب البرغل

ماذا يبقى إن كشف تبصمهم

أن الباب المقفول،

ليس وراءه

إلا عجز الفعل؟

الأحسن القصد؟

- أو سوؤه -

فالأمر سواء؟!؟!!

-6-

ماذا وجدوا في الداخل بعد تمام الجرد؟

الطفلة تحبو !!

جئة أم تتكلم. !.

وعصا عمياء

ومضارب مكسورة

وبقايا علبة سردين مفتوحة

فيها قول مأثور يرجع أصل الإنسان

للسمك المحفوظ بعلبة ليل؟

-7-

ماذا في الداخل يستأهل دس الأنف؟

رجل عين يتدلى منه العجز؟!!

حبل شقق الآخر بالحكم الفوقي؟!!

آثار الخضره!!!

ورياح حماسين الفكرة

وجه متاكل؟

وبقايا عين؟

وشطائر مخ وحوايا قلب؟

-8-

هتكوا عيرن الفكرة،

لم تولد

رصدوا الرغبة، أجهضت الطفلة

وتراجعت الدائرة الدورة

-9-

حين هممت أقول

قالوها بدلا مني،
يلساناً
فتسرب خدر كشماته
وتبسم طفل في خيـث أصفر
-10-

كنت سعيدا بالسلب النهب
بشيوع الأمر
بذيوع السر
لم يكن الداخل ملكي يوماً
والفتاح المزعوم خرافة
والبابُّ بلا مزلاج
والمتهم برئ مجهول الإسم
قيل له "ذاتي"
إسم للشهرة،
مفعولٌ به،
لم يحفظ ما لا يملك
ما دافع عنه
مأ كان

من ديوان "البيت الزجاجي والثعبان 1982

- صراحة أنا أغار من هذه الـ "i n g" التي تتميز بها اللغة الإنجليزية سواء في الزمن المضارع أم في الزمن الماضي، أنا أعتبر لغتي العربية أكثر حركية وهجلاً، وأعتبر التشكيل (فتحة ضمة شدة ..إخ) مزية حركية رائعة، لكنني أبحث عن ما يقابل هذا الزمن نحوياً المقابل للـ "i n g" إن جي، فقررت أن استعمل القاعدة الاستثنائية التي تسمح بإدخال ألف لام التعريف على الاسم، فاصف الذات بأنها "المشروع "أَلْتَبَكُونُ" أبداً"

- ربما هذا يقابل ما أشار إليه إريك برين، صاحب مدرسة التحليل التفاعلاتي وهو ينبه أن حالات الفصام شبه العصائى Pseudo neurotic schizophrenia تستجيب للتحليل التفاعلاتي transactional analysis كما يستجيب طفق الأسقربوط (الناج من نقص شديد لفيتامين ج) للحقن بهذا الفيتامين !! . بمجرد أن يقول المريض أن أصواتا تتكلم عنه خاصة إذا كانت داخل رأسه ، يغرى بتشكيل دراما صغيرة ترجع الأمور إلى نصايها غالباً. ملحوظة: في خبرتي عرفت أنه كان يعنى الفصام البادئ Incipient schizophrenia وليس الفصام العصائى مما لا مجال لمناقشته الآن.